

قراءة في كتاب: مقالات في التاريخ والسياسة
لإيمانويل كانط

Book review: *Articles on history and politics*
by Immanuel Kant

د. كمال طيرشي

باحث في المركز العربي
للأبحاث ودراسة السياسات

kamel.terchi@dohainstitute.org



قراءة في كتاب: مقالات في التاريخ والسياسة لإيمانويل كانط

د. كمال طيرشي

تقديم:

نعت عبد الرحمن بدوي (1917-2002) في موسوعته الفلسفية الشهيرة إيمانويل كانط Immanuel Kant (1724-1804) بأنه "أعظم فلاسفة العصر الحديث"¹. ولا نعتقد أن في هذا التوصيف مبالغة. فهو الفيلسوف الحامل للزعة الإنسانية في عصر الأنوار. هذه الأنوار التي ورثها أساساً من آمال ووعود الثورة الفرنسية عن حقوق الإنسان والمواطنة العالمية، وورثها كذلك من جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau (1712-1788) الذي كشف لكانط، حين أزال عن بصره الغشاوة، حقيقة مفادها أن حال الطبيعة أرقى من حال المدنية، ناهلاً منه مفهوم الضمير الخلقى المُستشعر في القلب. وهو الفيلسوف الذي تشبع بالتربية التقوية البروتستانتية Pietism وبالإصلاحات اللاهوتية لمارتن لوثر Martin Luther (1483 - 1546). وكان قد نال حظه من ثقافة عصره الألمانية. منفتحاً في الآن عينه على فيزياء اسحاق نيوتن Isaac Newton (1642-1727). بالإضافة إلى التأثير العميق الذي تركه فيه الفيلسوف البريطاني ديفيد هيوم David Hume (1711-1776). هذا الفيلسوف الذي استطاع أن يوقظه من غيبوبته الوثوقية. بما أثاره في عقله من ريبية حول نقائص العقل الصرف l'autonomie de la raison pure. وحول الرؤية الذائعة بين الفلاسفة أنداك عن مبدأ السببية، والتي تتلخّص في أن حُكم التلازم بين السبب والمُسبب ماهي إلا عادة ذهنية شبَّ عليها العقل ليس إلا².

والكتاب الذي نحن بصدد تدارسه هو عبارة عن نصوص أساسية للفيلسوف كانط جمعها الباحث التونسي فتحي إنقزو، ونقلها إلى اللسان العربي (344ص). وقد صدرت عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ضمن "سلسلة ترجمان" التي غطت فترة زمنية مهمة من تاريخ الفلسفة الحديثة، ونعني بذلك المنحى الأخير من الفلسفة الكانطية، حيث نشرها الفيلسوف تباعاً بعد كتابه المركزي نقد العقل الصرف *The Critique of Pure Reason* (1781)، وتتقاطع في الآن عينه، مع كتابين آخرين، هما: نقد العقل العملي

1- عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ج2 (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1984)، ص 269.

2- يُنظر: مقدمة كمال طيرشي، منزلة الدين في فلسفة كانط، رسالة مقدمة لنيل درجة ماجستير في الفلسفة، جامعة الجزائر 2، السنة الجامعية: 2013/ 2014، ص 1. يُنظر الرابط الإلكتروني: <https://bit.ly/3QRFY9y>.

Critique of Practical Reason الصادر سنة 1788، ونقد ملكة الحكم *Criticism of the Queen of Judgment* الصادر هو الآخر سنة 1790، ولكننا لا نعني بهذا أن هذه النصوص يُمكن ضمها لما يطلق عليه النسق الكانطي، وإنما هي بخلاف ذلك، تندرج ضمن مسلك آخر من الكتابة الكانطية، ولا يعتبرها إنقزو من النسق الكانطي *Kant's system* وإنما هي من المذهب *Kant's Lehre* إن صح هذا التعبير¹.

1- فكرة من أجل تاريخ عام من وجهة نظر المدنية الكونية²:

حاول كانط في هذا النص المركزي أن يبرز حقيقة مفادها أن للتاريخ معنى، وأن أية سيرورة للكائنات البشرية لا تتجلى لنا بصورة اعتباطية، محاولاً الإجابة عن إشكاليات تتعلق أساساً بالمغزى من وراء التاريخ، والآلية السرية التي تحكمه، وكذا المحرك الذي يسلك بنا نحوه، وهل هناك معنى يُمكن أن نحذقه من التاريخ أم أنه يمر هكذا بصورة اعتباطية عشوائية؟ وهو سؤال كانت إجابته عند الفيلسوف كونيجزبرغ: إن التاريخ هو في حقيقة الأمر كم هائل من الأفعال الانسانية التي تقع تحت وطأة الحتمية، وما يتجلى للفرد منا على أنه يحصل بطريقة فوضوية لا منطق يحكمها، إنما يحصل ويتجلى باعتباره تطوراً ثابتاً وإن كان بطيئاً لميوله الأصلية³.

وتساؤل كانط المركزي في هذا النص كان حول جدوى الحضارة في الوقت الذي كانت فيه الأخلاقيات الإنسانية مفرغة من الحرية ومن الحكم العقلي وسعة النظر، مبرزاً كذلك أن عصره وصل إلى درجة متقدمة جداً من التحضر، ومع ذلك لم تكن الأخلاق هي الوازع الجواني الذي يحتكم إليه السلوك الإنساني، بحكم أننا، بوصفنا بشرا، مثقفون جداً في مناحي الحياة الفنية والعلمية، وكذا متحضرون بصورة كبيرة إلى حد التخمة بالنسبة إلى المجاملات والآداب الاجتماعية من كل نوع. وينبغي الكثير من البرهنة كي نعتبر أنفسنا متخلفون⁴.

1- إيمانويل كانط، مقالات في التاريخ والسياسة، ترجمة فتحي إنقزو (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2022)، ص 9.

2- تم نشر هذا النص في المجلة الشهرية *Berlinische Monatsschrift* (نوفمبر 1784)، وقد مثل هذا النص رد فعل كانط على ملاحظة استفزته في مجلة *Gothaische gelehrte Zeitungen*، ومما جاء فيه فكرة عزيزة على فؤاد كانط، خلاصتها أن مبتغى الإنسانية هو إحقاق النظام السياسي الكامل، وهو يأمل في أن يعمد مؤرخ فيلسوف إلى كتابة تاريخ للإنسانية على مهاد هذه الفكرة، فيجلي فيه مدى اقتراب البشرية أو ابتعادها عن هذا المبتغى في شتى الأزمنة، ويوضح فيه ما تبقى لنا أن نعمله لكي نصل إلى تلك الغاية. يُنظر: إيمانويل كانط، "فكرة عن تاريخ كوني من زاوية نظر المواطنة العالمية"، ترجمة محمد منادي إدريسي، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، شوهده في 2020/6/2، في: <https://bit.ly/3Owk3Di>، ص 2.

3- يُنظر: زهير الخويلدي، "فكرة عن تاريخ كوني من وجهة نظر كوسموبوليتية عند كانط"، موقع المجلة الثقافية الجزائرية، شوهده في: 2021/03/25، في: <https://bit.ly/3ypWCWJ>

4- محمد شوقي الزين، الثقافة في الأزمنة العجاف: فلسفة الثقافة في الغرب وعند العرب (بيروت، الجزائر: منشورات ضفاف/ منشورات الاختلاف، 2013)، ص 29.

2- جواب عن سؤال ماهو التنوير:

المثير في هذا النص أنه كُتب من لدن كانط تحت طائلة الايعاز الرهباني، أو بالأحرى تحت عباءة لاهوتية مسائلة. ففي شهر ديسمبر من عام 1783، وبالضبط في مجلة برلين الشهرية. نشر راهب من مدينة برلين يُدعى تسولنر جوهان فريدريك (1834-1882) Johann Friedrich Zöllner، كرد فعل على مقال سلف نشره من لدن كاتب مجهول في نفس المجلة الشهرية وفي نفس السنة، ينافح فيها عن فكرة الزواج المدني، فخصص تسولنر نصه لتوجيه سهام النقد للزواج المدني والدفاع عن الزواج المقدس الذي ترعاه الكنيسة، أخذاً بعين الاعتبار مصلحة الدولة ذاتها، إلا أنه في الآن عينه هاجم الصورة المترسمة في عقول الناس آنذاك حول مفهوم التنوير¹. وقد أردف مقاله هذا هامشاً مستفزاً مفاده: ماهو التنوير؟ هذا التساؤل يكافئ بصورة أو بأخرى في قيمته سؤال ماهي الحقيقة؟ وكان يجب أن يسعى للإجابة عليه قبل البدء في التنوير، ومع ذلك فإنني لم أجد جواباً عليه².

وفي هذا النص المبتوث في هامش مقال كتبه الراهب المجهول عن قانون الزواج سيكتب له النضوج بالنسبة لتاريخ الفلسفة، وبهذا سينشر بادئ ذي بدء موسى مندلسون (1729-1786) Moses Mendelssohn – نصاً بعنوان: حول السؤال: ما معنى التنوير، ليظهر في العدد الذي تلاه من مجلة برلين *Berlinische Monatsschrift* مقال لكانط: جواب عن سؤال: ماهو التنوير؟ Was ist Aufklärung. وقد كتب كانط في آخر المقال ملاحظة يبرر فيها أنه لم يكن على علم، حين باشر كتابة هذا المقال، بمضمون مقال مندلسون، وإن كان علم بصدور مقال له حول هذا الموضوع بالذات من خلال قراءته لجريدة أسبوعية نشرت اعلاناً حول محتويات عدد شهر سبتمبر من مجلة برلين³.

ينطلق كانط في سبيل التعريف بماهية التنوير من اعطاء المكنة للإنسان بهدف إخراجه من حكم القصور الذي يغلب عليه، والذي هو نفسه مسؤول عنه. هذا القصور الذي يعني أساساً ضرورة استعمال الإنسان لذهنه الخاص بعيداً كل البعد عن حكم الوصاية، أو التبعية لأي كان⁴. ويُرجع كانط السبب الجوهري الكامن وراء هذا القصور الذي يُبرئ فيه تماماً أي تهمه يُمكن أن نلصقها بالذهن، إلى ضعف في

1- اعتقد أن هذه الطريقة الاستفزازية في طرح الأسئلة والتي يُوجهها في الغالب قساوسة ورهبان. كانت دارجة في القرنين 17 و18 في أوروبا. ولعل من أمثلة ذلك ما حصل مع كيركغارد حول مقال مفهوم الشاهد على الحقيقة الذي كتب مارتنس بمناسبة وفاة المطران مينستر عام 1854، إذ أنه وبعد وفاته بأيام قلائل وقف خليفته "مارتنس" ليشيد بمناقب الفقيه مؤكداً أن مينستر هو الشاهد على الحقيقة، فمنه نقتدر على تتبع الخيط الناظم الذي يجمع شهود الحقيقة أجمعين بسلسلة مقدسة تعود إلى عهد الرسل والأنبياء. وهذا ما استفز الفيلسوف الدانماركي سورن كيركغارد وكتب مقاله في صحيفة الوطن الدانماركية بعنوان: هل كان المطران مينستر شاهداً فعلاً على الحقيقة؟ وضح في نصّه هذا مفهوم الشاهد على الحق. يُنظر: حسن يوسف طه، فلسفة الدين عند كيركغارد (القاهرة: مكتبة دار الكلمة، 2001)، ص 58.

2- إيمانويل كُنت، "إجابة عن السؤال: ماهو التنوير؟"، ترجمة إسماعيل مصدق، موقع فكر ونقد، شوهد في 2022/6/30، في:

<https://bit.ly/3bARDte>

3- المرجع نفسه.

4- إيمانويل كانط، مقالات في التاريخ والسياسة، ص 129.

الحزم وفي قوة الاقدام على استعمال هذا الذهن، فالإنسان، كما يقول كانط، يشعر بالأريحية حين يجد من ينوب عنه في إعمال الذهن، ويوظف أوصياء يفكرون بالنيابة عنه، لهذا ارتكزت دعوة كانط على الجرأة في التعرف، والشجاعة في استعمال الذهن الخاص¹.

واستناداً إلى ما تقدّم فالإنسان مسؤول بصورة، أو بأخرى عن المآزق الذي يرهن فيه نفسه، بسبب الكسل أو الجبن الذي يدفعه إلى عدم استعمال عقله استعمالاً شجاعاً يُنجيه من قيديّة الغير والتبعيّة له، ولعل من الأمثلة التي يضرّ بها لنا كانط ههنا في هذا النص، هو النموذج الديني الوصي، حينما يعمد الفرد إلى الاستعانة برجال الدين بهدف الحصول على خلاصه الخاص، فيكون رجل الدين بمثابة الوصي على ضميره الخلقى والديني، أو الطبيب الذي يقرر للإنسان طبيعاً ما يأكله ويشربه، لكي لا يمرض، لكن، وفي مقابل ذلك يطرح كانط سؤالاً آخر عن حقيقة ما نحن فيه راهناً، إذ يقول: "هل نحن نعيش في هذه الأيام في عصر مستنير؟ كان الجواب: كلا، إنما في عصر التنوير. لا يزال الأمر يحتاج إلى أكثر بكثير حتى يكون الناس في مجموعهم، بحسب الحالة الراهنة للأمر، بعد في وضع هم فيه قادرون على أن يستخدموا أذهانهم في أمور الدين أو يُمكنهم ذلك فحسب، استخداماً واثقاً وحسناً دون إمرة من أحد"².

3- أفكار من أجل فلسفة في تاريخ البشرية ليوهان غوتفريد هردر:

للفيلسوف يوهان جوتفريد فون هيردر Johann Gottfried Herder (1744-1803) أهمية وتأثير كبيران على فلسفة كانط، ويعود هذا طبعاً بدرجة كبيرة إلى طبيعة أفكاره المهمة، هيردير الذي، إذا تعمقنا في فلسفته للتاريخ، وجدنا حضوراً قوياً ومنظماً لها في فلسفة هيغل، خصوصاً ما تعلق منها باللغة والعقل في التاريخ، والأمر عينه نقف عليه أيضاً عند الهيرمينوطيقي فريدريك شلايرماخر Friedrich Schleiermacher (1768-1834)، وكذلك فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche (1844-1900) الذي أظهر تأثيره الواضح بفلسفة هيردر، خصوصاً فيما تعلق منها بمسألة اللغة والقيم والعقل، وأيضاً فيلهلم دلتاي Wilhelm Dilthey (1833-1911) وجون ستيوارت مل John Stuart Mill (1806-1873) اللذان يدينان بالكثير لفكر هذا الرجل (في الفلسفة السياسية تحديداً)، ومن أهم الأعمال الفلسفية المركزية لهيردر، والتي تصب في بوتقة فلسفة التاريخ، كتابه: أفكار عن فلسفة التاريخ الإنساني الذي نشره سنة 1791، وما يهمننا ههنا هو ما تعلق بكانط، خصوصاً انتقاداته لأهم عملين للفيلسوف كانط، إذ خصص كتاب: النقد لنقد العقل الخالص (1799)، لتفنيد الفلسفة النظرية الكانطية، وكتاب كاليجوني الذي انتقد فيه استطيعا كانط³.

يعارض كانط في هذا المقال منظورية هيردر حول فلسفة تاريخ البشرية، والذي يراه غير متوافق البتة مع نظرته، ومع ما يستدعيه حضور هذا النعت تحديداً. وحثته أن الأمر لا يرتبط ههنا بشيء من الإحكام

1- المرجع نفسه.

2- المرجع نفسه، ص 126-127.

3- مايكل فورستر، "يوهان جوتفريد فون هيردر"، ترجمة طريف السليطي، موقع مجلة حكمة، شوهد في: 2021/8/6، في:

<https://bit.ly/311nQpL>.

المنطقي في تحديد المفاهيم، ولا بتميز لطيف أو بتحقيق للمبادئ، وإنما برؤية واسعة متطلعة جائلة في الأشياء بغير إطالة، وبرؤية فاحصة لتجلي التمثلات في الموضوع المطلوب، الذي تركه في حالة تباعد غامض، بسبب فيض المشاعر والأحاسيس التي ظهرت كأنها آثار للقوام العظيم للفكر، أو الماعات ذات مغزى عظيم، من شأنها أن تدعو إلى التشكك في محتواها أكثر مما يمكن لتحليل رصين أن يكشفه فيها بلا ريب¹.

4- تحديد مفهوم العرق البشري:

يؤكد كانط في هذا النص على المساهمات الأخيرة التي انتشرت معارفها بين الناس بخصوص نوعية الجنس البشري، والتي كان من تمخضاتها إلى يوم الناس هذا أن دفعت العقل البشري إلى أن يتعمق أكثر في هذا المنحى دون أن يشفي غليله. إلا أنه من الأهمية أن يتم تحديد المفهوم بطريقة منطقية مُحكمة، قبل أن نفتح على التجربة ونسائلها في هذا الشأن، بحكم أننا لا نكاد نحصل من التجربة على ما نبتغيه ونرجوه إلا إذا كنا نعلم سلفاً ما نحن مقبلون عليه من البحث. فقد كثرت القراءات حول مختلف الأعراق البشرية، التي يقصد منها بعضهم أنماطاً متضاربة ومختلفة من الناس، في حين تتجلى لدى بعضهم الآخر كدلالة غارقة في التقييد، لكن لا يتضح أنهم يجدون هنا تفرقة أهم من تلك التي يستند إليها البشر فيما بينهم بما لهم من سبل ومسالك في الزينة والملبس مثلاً. ويعترف كانط ههنا بأن مطلبه في هذا النص ليس السعي لبسط مفهوم محدد دقيق لمفهوم العرق، وهل له وجود في الجنس البشري. أما فيما يتعلق بتفسير أصل الأعراق الموجودة فعلاً، والتي يعتقد أنها تستحق هذا النعت وهذا التوصيف، فهو أمر ثانوي يحق للباحث أن يأخذه كيفما شاء. وكانط يرى أن لهذا رجالاً هم من أصحاب الصنعة والرأي حين يتعلق الأمر فقط بالحكم على ما قيل منذ سنوات خلت في هذا الصدد، وتنصبّ جُل جهودهم لهذا المنحى الجانبي فقط، كنوع من التطبيق الفرضي للمبدأ، أما ما يخص المبدأ في حد ذاته، والذي عنه ينبثق كل شيء، فيمرون عليه مرور الكرام².

5- في استعمال المبادئ الغائية في الفلسفة:

كان الهدف الأساسي من كتابة كانط لمقال: "في استعمال المبادئ الغائية في الفلسفة" هو الرد على بعض الانتقادات التي وجهها له صديقه العالم الألماني المختص في علم الأعراق يوهان غورغ فورستر Johann George Adam Forster (1754-1794) حول مقالته في العرق البشري: "بعض الإضافات حول الأعراق البشرية"³. هذه الاعتراضات التي اعتبرها كانط متأتية مما لقيه المبدأ الذي انطلق منه، وهو مبدأ بُني على سوء فهم كما يرى كانط، إذ يسير بمحنى تاريخ للطبيعة يصرار إلى اقتضائه تمييزاً له عن مجرد وصف الطبيعة، فضلاً عن كون هذا التمييز عنده غير مقبول. هذا واعتراض كانط على فرضية فورستر بخصوص

1- ايمانويل كانط، مقالات في التاريخ والسياسة، ص 130.

2- المرجع نفسه، ص 157.

3- المرجع نفسه، ص 201.

تفسيره لأصل الزوج، معتبراً إياها مخالفة للوصف الطبيعي، حيث يُمكن عدّها ضمن التاريخ الطبيعي، بحكم أن هذه التفرقة تتأسس على طبائع الأمور، راسماً بذلك حدوداً مفصلية دقيقة بين ميدانين متنافرين بصورة كلية، به يتضح الوصف الطبيعي باعتباره علماً، في ألق نسق عظيم، لا يقدر التاريخ الطبيعي أن يُظهر إلى هذا الحد إلا عن شذرات أو اقتراضات متذبذبة. وبهذا فإنه من خلال وضع الوصف الطبيعي وتقديم الثاني من منطوق كونه علماً في ذاته، إن هو إلا ضرب أقرب إلى الترسيم منه إلى أثر مكتمل، على أمل أن نصل إلى معرفة أدق من وجه أول بمصداق المعارف الفعلية في التاريخ الطبيعي، ومن طريق ثان نستجلي أيضاً حدود العقل ذاته، وكذا المبادئ التي يكون في مقدوره بناءً عليها أن يوسّع مجاله¹.

6- إن ما قد يصح في النظر لا يرجى منه شيء في العمل:

عالج كانط في مقاله هذا علاقة النظر بالعمل، وذلك وفقاً لأقسام ثلاثة هي: الأخلاق بعامة بالنظر إلى خير كل واحد من الناس، والثاني في السياسة وفي صلة بخير الدول، والثالث في الاعتبار الراجع إلى العمران الكوني بالنظر إلى خير الجنس البشري في جملته².

في هذا النص يرد كانط على ثلاثة مفكرين، أولهم صديقه غيرفه، ثم توماس هوبز وصولاً إلى مندلسون، ويستمله برده على غرفه، ففي القسم الأول المتعلق بالأخلاق عامة، والذي يرد فيه على صديقه الذي أيقظه من سباته: الدوغمائي كريستيان غارفه Christian Garve، منطلقاً من كتابه: مقالات متنوعة في الأخلاق والأدب والاجتماع (1792)، الذي نافح على قضية مفادها أن مراعاة القانون الأخلاقي، من دون أي حساب للسعادة، إنما شأنها أن تكون الغاية القصوى الوحيدة للإنسان، ويتعين اعتبارها الغاية الوحيدة للخلاق، وههنا يتحفظ كانط على هذه المسألة باسماً نظريته في هذا الشأن التي تؤكد على أن أخلاق الكائن البشري ليست مأخوذة لأجل ذاتها، ولا كذلك السعادة مقتبسة بمفردها، يشكّلان الغاية الوحيدة للخلاق، وإنما أرقى خير في العالم، بمعنى الجمع والتوافق بين الاثنين معا³.

أما اعتراضه على توماس هوبر، فينطلق فيه كانط من منظور العلاقة بين النظر والعمل ضمن الحق السياسي، معتبراً مفهوم الحق الخارجي بصفة عامة إنما يصدر بصورة شاملة عن مفهوم الحرية فيما بين البشر ضمن علاقات تواجبية خارجية تربط بعضهم ببعض، ولا علاقة لها بتاتا، كما يدعي هوبز، بالغاية التي يحوزها جميع البشر بالطبع (أي السعادة)، كما أنه لا مشاحة في الوسائط التي تساعد على تحصيلها، حيث إن هذه الغاية لا يربطها تماماً أن تتخالط مع هذا القانون، بما هو مبدأ معين. فالحق هو تقييد لحرية كل فرد منا، بشرط أن يتوافق وحرية الجموع قدر المستطاع بحسب قانون عام، أما الحق العام فهو خلاصة اقتران القوانين البرانية التي تمكّن من تواشج كامل كهذا. ولما كان كلّ تقييد للحرية بإرادة من الأغيار يسمى جبراً، تمخض عن ذلك أن الدستور المدني هو علاقة بين بشر أحرار، هم من دون انتهاك صاخر لحريةهم في

1- المرجع نفسه، ص 205.

2- المرجع نفسه، ص 236.

3- المرجع نفسه، ص 238.

الجموع الذي هو تعالقمهم بالغير، مع ذلك هم ملزمون بالخضوع لقوانين إلزامية، بحكم أن العقل البشري عينه هو الذي شاء ذلك، بل العقل الخالص المشرّع على نحو قبلي، والذي لا يأخذ أي غاية إمبريقية مثل شتى الغايات التي هي من هذا الجنس، والتي يتم تمثيلها تحت مسّى السعادة في الحسبان، بحكم أنه، بالنظر إلى هذه الغايات، وما يبتغيه كل واحد وضعها فيه، فإن البشر تختلف تصوراتهم بصورة واضحة حتى أن إرادتهم لا يتأتى لها أن توضع تحت مبدأ مشترك، ولا تحت قانون براني على تواشج مع حرية كل واحد¹.

7- من أجل مشروع دائم للسلام:

يُمكن موضعة مشروع السلام الدائم للفيلسوف كانط في إطار التوجّه الفلسفي المدثر بالعقلانية الكونية الكانطية، حيث ينبجس من فكرة بشرية ذات منزع عالمي، تسعى حثيثاً لإحقاق أسمى درجات الرقي الإيتيقي، وهو السلام الدائم الأبدي، وهو بهذه الحال يمثل تجسيدا بحق للنزوع نحو السلام الشامل، ويؤكد كانط أن النزوع نحو الهرب هو فعل متأصل في الطبيعة الإنسانية، بحكم أن فطرة البشر تنزع إلى ما هو حربي، سواء أكانت هذه الحرب محسوسة بوسائل مادية تدميرية، أو مجرد نزوع أيولوجي ينطوي على تهديد مستمر بالعدوان، ورغم ذلك يظل السعي إليها بكافة السبل الممكنة هو عبارة عن شر، لأنه في النهاية يؤدي إلى التخريب، وتلبسه وسائل متوحشة وعدوانية². وغاية كانط المركزية من وراء هذا المشروع هو الدعوة لخلق تواشج بين الأمم كطريقة وحل نهائي أوجد للقضاء على الحرب، رغم أنه اعترف سابقاً بالدور الذي يُمكن أن تلعبه الحرب حضارياً. وقد كان كانط يعتقد أنه ليست الحرب هي الشر الأكبر فقط، بل حتى فكرة إمكانية اندلاع حرب مستقبلاً، ولأجل ذلك جعل كانط من مشاغله الجوهرية السلام الدائم لصون الحرية البشرية، والقضاء على الاستبداد في الآن عينه، وقد كتب كانط مشروعته على شاكلة مواد وضع فيها الضوابط الأساسية التي تمكن من إخماد لهيب الحرب³.

ووضع كانط جملة بنود تمهيدية لمشروع سلام دائم بين الدول، مؤكداً على أنه لا ينبغي أن نعتد بأي معاهدة من معاهدات السلام إذا انطوت سرا على أمر من شأنه أن يكون مدعاة لإشعال الحرب من جديد، وأنه ما من دولة مستقلة يُمكن أن يصرار إلى حيازتها من جانب دولة أخرى بالتوارث أو بالمقايضة والشراء والهيبة، كما أن الجيوش الدائمة يجب أن تلغى تماماً على مر الأزمان، هذا ويجب ألا يقع اللجوء إلى الديون الداخلية من أجل المصالح الخارجية للدولة، كما لا يجوز لأي دولة أن تتدخل بالقوة في دستور دولة أخرى، أوفي نظام حكمها، كما لا يحق لأي دولة في حرب مع دولة أخرى أن تبيع لنفسها من صنوف العدوان إزاء تلك الدولة ما يجعل من المحال لدى عودة السلام إيجاد ثقة متبادلة بين الطرفين⁴.

1- المرجع نفسه، ص 250

2- حنان مراد، "قراءة في كتاب مشروع السلام الدائم للفيلسوف إيمانويل كانط": الفكرة وحدود التطبيق"، موقع مركز تكامل للدراسات والأبحاث، في: 2021/2/26، في: <https://bit.ly/3bMWrfa>.

3- خليل الناجي، "كانط وقضية السلام الدائم"، موقع الجزيرة نت، في: 2017/11/19، في: <https://bit.ly/3bN83Ph>.

4- إيمانويل كانط، مقالات في التاريخ والسياسة، ص ص 279-283.

إنّ المتأمل في مشروع كانط نحو السلام الدائم يجد بأنه يدين بصورة كاملة لمرحلته النقدية، بحكم أن الفيلسوف قد كتب هذا المشروع في مرحلة متقدمة من عمره، وأراد فيه جمع فلسفته جميعها في مؤلف صدر بعنوان: مشروع السلام الدائم¹.

وحقيق بنا الاعتراف ههنا بأن مشروع السلام الدائم لكانط، (وشتى المشاريع الأخرى الداعية للسلام والتي وجدت مؤددها في عصر التنوير الأوروبي)، قد بيّن مدى شجاعته في تصوره لنظام قانوني مؤسس على ثلاثة مستويات هي: القانون داخل الدولة، والقانون العالمي، والقانون الكوسموبوليتيكي². وعليه يوضح كانط أنّ السلام ممكن التحقيق إذا عملنا على توفير بعض المنافذ والإمكانات الأساسية، وعلى رأسها بداية تحول الوعي الفردي وإقامة جمهورية دستورية ومعاهدة فيدرالية بين الدول لإنهاء الحرب وليس تنظيمها، في دعوة من كانط واضحة لإقامة نوع من التنظيم العالمي بين الدول المتعاهدة، وفعالاً أمكن لفكرته أن تتجسد في إقامة عصبة الأمم بعد نهاية الحرب العالمية الأولى³. والتبرير الذي استند إليه كانط في تصوّره لهذه العصبة الأممية مبني على كون الصلات المعقودة بين شعوب العالم قاطبة، على تباين قوتها وإمكانياتها، ونفوذها، تجعل امتحان الحق في مكان ما على هذه الأرض يتردد صداه في كل مكان، وهكذا ففكرة التشريع العالمي لم تعد تبشر بصورة خيالية للحق، بل إنها تبدو مكتملة ضرورة لذلك القانون غير المكتوب، المشتمل على القانون المدني وقانون الشعوب، والذي ينبغي أن يرتفع إلى مرتبة القانون العام للإنسانية قاطبة، ومن ثم السلام الدائم الذي لا يستطيع أن نطمع في دوام الاقتراب منه إلا بذلك الشرط وحده⁴.

8- خاتمة:

بعد هذه القراءة المقتضبة لواحدة من أهم النصوص الكانطية المركزية والتي نقلها الباحث التونسي فتحى إنقزو إلى اللسان العربي، يتحتم علينا تنزيلها ضمن سياقها العام المرتهن بمؤلفاته سواء تلك المحسوبة على المرحلة قبل النقدية أو المرحلة النقدية التي نضجت فيها فلسفته وصولاً إلى كتابات الشيخوخة، والتي لا يمكن لنا البتة أن نفهم هذه النصوص إلا من خلال خيط ناظم يمثل مفتاحاً لفهم الفلسفة الكانطية، مركزين في ذلك على كتبه النقدية الشهيرة، لأنها بصورة أو بأخرى ماهي إلا انشغال، وهمّ فلسفي واحد لكانط، القديم منه والحديث باختلاف وتباين موضوعاته (الانثروبولوجيا، الجغرافيا الطبيعية، الأعراق البشرية، جدالاته حول ماهية التنوير)، والتي أصبح لها، فيما بعد، حضور قويّ عند فلاسفة النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، كماكس هوركهايمر وثيودور أدورنو مروراً بالجيل الثاني من المدرسة الممثلة في فيلسوفها يورغن هابرماس الذي ما تزال التأثيرات الكانطية تجبل فلسفته، وصولاً إلى أكسيل هونيث وهارتموت روزا وغيرهم.

1- يُنظر: محمود سيد أحمد، مشروع كانط للسلام الدائم: أسسه ومصادره، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 23 (صيف 2014)، ص55.

2- يُنظر: نور الدين علوش، الفلسفة الأمريكية المعاصرة (بيروت/ كندا: دار أوبوس للنشر، دار الرافدين، 2016)، ص127.

3- فارس محمد العمارات، الأمن الإنساني في ظل العولمة (الأردن: دار الخليج للنشر والتوزيع، 2020)، ص33.

4- حوسين بلخيرات، النظرية السياسية للمجتمع الدولي (بيروت: مركز الكتاب الاكاديمي، 2017)، ص25.

المراجع:

- 1- أحمد، محمود سيد، مشروع كانط للسلام الدائم: أسسه ومصادره، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 23 (صيف 2014).
- 2- بدوي، عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، ج2 (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1984).
- 3- بلخيرات، حوسين، النظرية السياسية للمجتمع الدولي (بيروت: مركز الكتاب الأكاديمي، 2017).
- 4- الخويلدي، زهير، "فكرة عن تاريخ كوني من وجهة نظر كوسموبوليتية عند كانط"، موقع المجلة الثقافية الجزائرية، شوهد في: 2021/03/25، في: <https://bit.ly/3ypWCWJ>
- 5- الزين، محمد شوقي، الثقافة في الأزمنة العجاف: فلسفة الثقافة في الغرب وعند العرب (بيروت، الجزائر: منشورات ضفاف/ منشورات الاختلاف، 2013).
- 6- طيرشي، كمال، منزلة الدين في فلسفة كانط، رسالة مقدمة لنيل درجة ماجستير في الفلسفة، جامعة الجزائر 2، السنة الجامعية: 2013/ 2014، في: <https://bit.ly/3QRFY9y>
- 7- طه، حسن يوسف، فلسفة الدين عند كيركجارد (القاهرة: مكتبة دار الكلمة، 2001).
- 8- علوش، نور الدين، الفلسفة الأمريكية المعاصرة (بيروت/ كندا: دار أبوس للنشر، دار الرافدين، 2016).
- 9- العمارات، فارس محمد، الأمن الإنساني في ظل العولمة (الأردن: دار الخليج للنشر والتوزيع، 2020).
- 10- فورستر، مايكل، "يوهان جوتفريد فون هيردر"، ترجمة طريف السليطي، موقع مجلة حكمة، شوهد في: 2021/8/6، في: <https://bit.ly/311nQpL>
- 11-- كانط، إيمانويل، "إجابة عن السؤال: ماهو التنوير؟"، ترجمة إسماعيل مصدق، موقع فكرونقد، شوهد في 2022/6/30، في: <https://bit.ly/3bARDte>
- 12-- كانط، إيمانويل، مقالات في التاريخ والسياسة، ترجمة فتحي إنقزو (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2022).
- 13-- كانط، إيمانويل، "فكرة عن تاريخ كوني من زاوية نظر المواطنة العالمية"، ترجمة محمد منادي إدريسي، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، شوهد في 2020 /6/2، في: <https://bit.ly/3Owk3Di>
- 14-- مراد، حنان، "قراءة في كتاب مشروع للسلام الدائم للفيلسوف "إيمانويل كانط": الفكرة وحدود التطبيق"، موقع مركز تكامل للدراسات والأبحاث، في: 2021 /2/26، في: <https://bit.ly/3bMWrfa>
- 15-- الناجي، خليل، " كانط وقضية السلام الدائم"، موقع الجزيرة نت، في: 2017 /11/19، في: <https://bit.ly/3bN83Ph>